

ملاحم الرومانسية في شعر محمود سامي البارودي

ياسر هوشيار*

تاريخ دريافت: ٩٢/٩/١٨

فيروز حريرجي**

تاريخ پذيرش: ٩٣/٣/٢٠

الملخص

يعتبر المذهب الرومانسي في أول ظهوره تجديداً في طريق الإحساس والتفكير والتعبير، إنه ثورة ضد القيود التي فرضتها الكلاسيكية، وإن الرومانسية في أصلها لون من ألوان الأدب العربي نشأ في أوروبا ثم تسرب في القرن التاسع عشر إلى الأدب العربي. وفي الحقيقة إن الأدب العربي تأثر بمذهب الرومانسي ومن الشعراء الذين تأثروا بمذهب الرومانسي الشاعر الذائع الصيت المصري محمود سامي البارودي من رواد التجديد في الشعر العربي الحديث؛ حاولنا في هذا المقال أن نتناول أحد مظاهر التجديد في أشعاره وهي الرومانسية. البارودي بحكم حياته تأثر بمذهب الرومانسي وخطا فيه خطوة الرومانسيين. لكنه لما تسود عليه النزاعات المختلفة من الكلاسيكية والواقعية تأتي رومانسيته أحياناً غير واضحة مما يضطر القارئ إلى إمعان النظر الطويل لكشف المعالم الرومانسية في أشعاره. ومن أهم المضامين الرومانسية التي تجلت في أشعاره هي الطبيعة، والحب، والحنين، والشكوى من المجتمع، والدعوة إلى العزلة والإغتراب.

الكلمات الدلالية: الرومانسية، الحب، الغربة، الطبيعة، الحنين.

* طالب مرحلة دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة آزاد الإسلامية، فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران.

yaser.hoshyar@yahoo.com

** أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران.

F_harirchi@srbiau.ac.ir

المقدمة

إنّ الأدب العالمي شهد منذ عهوده الأولى إلى القرن الحاضر تطورات عديدة ظهرت آثارها على أشكال مختلفة في مؤلفات الأدباء والشعراء والكتاب. من تلك التطورات التي تعرض الأدب لها في القرن الحديث هي نشأة التيار الرومانسي الذي ظهر في النهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في أوروبا. إنّ الرومانسي حين فتح عينيه على العالم وجده متمسكاً بالقديم وخالياً من الجديد والإبداع والإبتكار، وإنّ كل ما يظهر فيه من الآثار هو تقليد محاكاة عن القديم. إنّ حين شاهد هذه المعالم التقليدية والمكررة وهو يترع مترع التجديد سئم منها، قام تأثيراً على القديم، رافصاً التقليد، داعياً إلى التجدد و التجديد ومسايرة روح العصر.

من هولاء الشعراء الذين رغبوا في التجديد هو الشاعر محمود سامي البارودي الذي نجد كثيراً من المظاهر الرومانسية في أشعاره. أمّا الدراسات السالفة- مع كثرتها ووفورها- حول البارودي لم تسلط الضوء على مضامين الرومانسية عند البارودي بضوءٍ واضحةٍ، وفي دراستنا هذه حاولنا لشرح وتوضيح مضامين الرومانسية عند البارودي بصورة سهيلٍ على القارئ تلقّيها.

قد أثارت إهتمامنا إلى أن ندرّس «مضامين الرومانسية في أشعار محمود سامي البارودي» ونجعل عنوان دراستنا «ملاحم الرومانسية في أشعار محمود سامي البارودي» وسعينا من خلال دراستنا هذه أن نكشف خلال أشعار البارودي موضوعات الرومانسية الشهيرة.

في هذا المقال نريد الإجابة عن هذين السؤالين:

- (١) أي موضوع من الموضوعات الرومانسية يوجد في أشعار البارودي؟
- (٢) إلى أي مدى تأثر البارودي بالمذهب الرومانسية؟ بناء على هذه الأسئلة سنثبت الفرضيات التالية: من المواضيع الرومانسية المهمة التي تواجدت في شعر البارودي؛ هي الحب، والحنين والشكوى والغربة. وكان البارودي منذ صباه متأثراً من الرومانسية وحاول أن يجسدها بكل أنواع التعبير، فالبارودي شاعر وجداني بامتياز.

الأدب العربى والرومانسية

بدأ إحساس أدباء العرب بالنفور من الأدب التقليدى الجامد الذى ورثوه عن عصر الإنحطاط، منذ القرن التاسع عشر الميلادى، وكان هذا النفور إيذاناً بافتتاح عصر جديد تزدهر فيه القيم العربية الأصلية وتزول عنه صفة الجمود، الذى سيطر على الحياة الفكرية والأدبية وصفة التقليد الجاف الذى كان منحصراً فى النماذج الأدبية القديمة، وكان تقليداً فى الشكل دون الروح (احمد ذكى عشاوى، لا.تا: ٩٥). «كما ذكرنا أنفاً قد لجأ رواد حركة البعث الأدبى من الشعراء فى القرن التاسع عشر إلى الينايع الأولى للشعر العربى وخاصة فى عصر الإزدهار العباسى، لكى يعيدوا للشعر العربى القديم مجده من الجديد ويتخطوا المسافة الشاسعة بينهم وبين الأدب العربى الأصيل ولقد إستطاع محمود سامى البارودى الرائد الأول لهذا الإتجاه، أن يرتفع ببنائه الشعرى ليحاكى نماذج المجلىين من صفوة شعراء العرب كما إستطاع أن يحقق نجماً هائلاً فى استعارة الإطار الشعرى وتحميلة خواطره وعقله» (محمد مصطفى هدارة، ١٩٩٤م: ١٧). «إننا نشاهد المئات من فحول الأدب من امثال أحمد شوقى، حافظ ابراهيم و محمود سامى البارودى ظلوا أوفياء لتراث الأمة العربية وموروثاتها الفكرية والأدبية الراجعة مع محافظتهم على الأغراض الأدبية القديمة على ما فى شعرهم من تجديد وتحديث لكنهم حرصوا، فى الوقت نفسه، على التوفيق بين الأصالة والمعاصرة» (سادات اشكور، ١٣٩٢: ٤-١٢).

لم يبعد الأدب العربى عن هذا التيار الأدبى وأقبل عليه الأدباء العرب بحكم ما كانت تقتضيه روح العصر الحديث؛ ودعوا إلى تحرير الشعر العربى من القيود المتبعة وإلى هدم الحواجز التى تحوّل دون تقدّمه وازدهاره وإلى تطعيمه بمذاهب الشعر الغربى. والعوامل التى أدت الى اقبال الرومانسية هى إكثار شعراء مدرسة الاحياء من الالتفات إلى القديم ومحاكاته ومعارضته، واهتمامهم بشعر المناسبات، وانصرافهم عن تجاربهم الذاتية إلى الحديث عما هو خارجها، واهتمامهم بالصياغة والشكل والقالب على حسب المعنى والفكر والوجدان، ووقوفهم على حد اعتبار البيت الشعرى وحدة مستقلة وعدم الاهتمام بالوحدة العضوية فى القصيدة» (شمس أبادى، ١٣٩١ش: ١).

تقليد البارودى لم يصرفه عن فكرته التجديدية التى إنبعثت من طبيعته وخلقه؛ فهو يرى أن الشعر مرآة العصر ويعتقد أن الشعر ميت إذا بقى بعيداً عن حياة العصر والبيئة

ولذلك أراد أن يجمع بين مجارة الأقدمين والتمشى مع المحدثين فعالج فى ديوانه أغراض مستحدثة (الفا خورى، ج ١، ١٩٩١م: ٤٤٥)؛ وقد إستطاع هذا الإتجاه الذى سلكه محمود سامى البارودى أن يؤثر تأثيراً بالغاً فى النهضة الشعرية بعد ذلك. حيث إستمرت حركة البعث «الإحياء» عند مدرسة بأكملها وتزعّمها أحمد شوقى (١٨٦٨-١٩٣٢) وكان من رجالها حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢) وعلى الجارم (١٨٨١-١٩٤٩) ومعروف الرصافى (١٨٧٧-١٩٤٥) وكانت هذه المدرسة تدعوا إلى إحياء التراث الشعر القديم (سعيد الورقى، ١٩٨٤م: ٢٦).

وبعد أن قام شعراء مدرسة الإحياء بدورهم الكبير فى إعادة الشعر العربى إلى التدفق إلى مجراه الأصيل الذى إختطه فى العصور الذهبية، وفى نفى ظواهر الضعف والإنحطاط عنه، إستجدت عوامل سياسية وإجتماعية وفكرية على العالم العربى، هزته فى أعماقه، وغيّرت من قيمه ونظرتة إلى الوجود. ودعى بعض المثقفين إلى الثورة على كل ما هو راسخ فى مجتمعهم ومنه الشعر. ووجد الشعراء أنفسهم مرفوعين إلى التيار الرومانتيكى الثائر على سيادة المنطق والعقل والداعى إلى اتخاذ العاطفة أساساً فى التجربة الفنية. هذا التيار الذى نشأ فى أوروبا ليواجه التيار الكلاسيكى الذى حال بين المرء وحرّيته (نفس المصدر: ٢٢).

رأى النقاد حول رومانسية البارودى

ألقى الدكتور عبد/قادر القى محاضرةً فى ندوة الدورة الثالثة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع العشرى تحت عنوان «البارودى بشير الإتجاه الوجدانى» تحدث فيها عن رومانسية البارودى. فى إشارة سريعة لأسباب رومانسية الشاعر يقول الدكتور: «و من المعروف أن حياة البارودى قد حفلت- منذ صباه- بالإحداث والتجارب، فخاض وهو شاب حرب كريت ثم إشتراك فى حرب البلقان ثم قدر له أن يضطلع بدوره المعروف فى الثورة العربية وأن تنتهى حياته بنفى سبعة عشر عاماً. فقد أثنائها زوجته وبعض ولده وأصدقاءه فى أرض الوطن ودبت إلى جسده الشيخوخة وإلى روحه اليأس بعد معاناة طويلة من مرارة الهزيمة والندم والغربة وقد فرصت هذه التجارب على الشاعر أن يرتد إلى ذاته فينبعث شعره- على الرغم من مظاهر التقليد- من الحرارة والعواطف الممتزجة

بالبصيرة النافذة، ما لا ينبع إلا التجربة والملاحظة الدائبة للنفس والناس والحياة. وقد ظلت تلك ظاهرة ملحوظة من قبل فى الشعر العربى عند شعراء كانت لهم تجارب خاصة فى الحياة، طبعت بعض شعرهم بسمات ذاتية تميزوا بعضها عن سائر الشعراء» (مجموعة من المتخصصين، ١٩٩٢م: ٢٥٦).

نعم إن البارودى حتى فى أشعاره الكلاسيكية أدخل مشاعره الصادقة وذاته. فمثلاً عندما يرثى أصدقاءه أو عندما يمدح ترى علائم الذاتية قد تجلت فى شعره ويستطرد هذا الأخير حديثة عن رومانسية البارودى ويقول: «لعل ما زاد إلتفات الناس إلى الشعر البارودى وإعجابهم به أن حياته الحافلة بالأحداث ونهاية الفاجعة وكثرة حديثة فى شعره عن تحوّل المصائر وخيانة الأصدقاء جعلت منه ومن سقوطه الفاجع «شخصية مأسوية» مثيرة للوجدان الرومانسى. ممثلة للصراع، بين القدرة والعجز والإرادة والقدر وسقوط «المثال» وإنكسار المنتصر. وكلها معان تمثل جوانب أساسية للتصور الوجدانى أو الرومانسى للحياة» (نفس المصدر: ٢٩٨).

وقد نرى نفس هذا المعنى وهذا القول على لسان باحث آخر وهو من رواد الوجدانية المعروفين فى الرواية، وهو محمد حسين هيكل فى مقدمة ديوان البارودى. فإنه يرى أن أشعار البارودى ليست كلاسيكية محضة وخالية من الوجدان ونفسية الشاعر بل على العكس هى صورة كاملة لنفسيته وألامه.

«لشعر البارودى حياته فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم. والديوان فى مجموعة صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى أحاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة ما حوله.

وشعر المنفى كسحر الشاب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى أراد لها القدر أن تكون نغماً من الأنغام تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً، ثم تستقلها ألسن ويسقلها النفى، فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلى هذا النغم سكينه تسمو بها على المألوف من ألحان الحياة لا يغير من ذلك ما يدفعه النفى إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عن صيحات تأثرة» (مقدمة الديوان، ١٩٩: ٥).

ملاحح الرومانسية فى شعر البارودى

(١) الحب

يعتبر الحب مدار الكثير من قصائد الشعر الرومانسى، حيث يعتبر فيها الشعراء عن عاطفتهم فى إطار الذاتى يسقطون عليها إحياناً موقفهم من الطبيعة والمجتمع والحياة. فقد كان للحب شأن بارز فى البارودى سواء فى مطالع قصائده الطويلة أو فى قصائد ومقطوعات لإبراز عواطفه. ولم يكن البارودى - بالطبع - بدعاً بين الشعراء فى ذلك المجال لكن تجارب الحب عند معاصريه كانت تبدو ضئيلة إلى جانب أشعار المناسبات والإخوانيات والأحداث والإجتماعية والمعارضة. على حين تبدو غزليات البارودى بينة الصلة فى الموقف والتعبير من أشعار الحركة العذرية (مجموعة من المتخصصين، ١٩٩٢م: ٣١٣-٣١٤)

للبارودى مقطوعات رومانسية خالصة فى الحب تكاء فى مسير لغتها و«بساطة» أسلوبها وفى صورها ومشاعرها، تختلط بالمقطوعات الغدرية المعروف. منها مقطوعته:

هل مِن فَتى يَنْشُدُ قلبى مَعى	بين خُدورِ العينِ بالأجرعِ؟
كان مَعى ثمَّ دعاهُ الهَوَى	فَمَرَّ بالحىِّ ولم يَرْجعِ
فهَل إذا ناديتُهُ باسمِهِ	يُفِيقُ مِن سَكْرَتِهِ أو يَعى
هيهاتَ يَلْقَى رَشْداً بعدَمَا	أغواهُ لِحَظِّ الرِّشَاءِ الأتلعِ
فيا دُموعَ القَطْرِ سيلي دَمًا	ويا بناتِ الأيكِ نوحى مَعى
و أنتِ يا نَسَمَةَ وادى الغَضَى	مُرِّ برِياكِ علي مَرَبعى
وأنتِ يا عصفورةَ المُنحنى	باللهِ غَنَّى طَرَباً وإسجَعى
وأنتِ يا عينُ إذا لم تَفى	بذِمَّةِ الدَّمعِ فلا تَهجَعى
صباةً أغرتِ على الأَسى	ودَلَّتِ الشَّهدِ على مَضجَعى
ويلاهُ مِن نارِ الهَوَى إنَّها	لولا دُموعى أحرقتِ أضلَعى
أبيتُ أرعى النِّجمَ فى سُدْفَةٍ	ضَلَّ بها الصُّبحُ فلم يَطلُعِ

(ديوان الشاعر، ١٩٩٢م: ٥٢٩)

الإرتباط بين هذه القطعة وما شابهها من الشعر العذرى واضحة فى هذه الأسى وفى ذلك الإهتمام والتوجه نحو مظاهر الطبيعة الرقيقة والأخاذه، وفى النداء المكرر الذى

كثيراً ما لجأ إليه الرومانسيون وعبروا عن حبههم ومواطنهم الأولى وفى غلبة الموسيقى الهادئة الحزينة والهدوء الذاتى نجده فى شعراء أصحاب الإتجاه الوجدانى، وكذلك من ناحية صورها قريبة إلى طبيعة الشعر الرومانسى الذى يكون فى مجال الحب وتجاربه. وهكذا يبدو الصوت الذاتى فى كثير من قصائد الشاعر عن الحب والطبيعة والمحنة يتمثل أحياناً فى أبيات تتابع فيها الإضافة إلى «يأ المتكلم»، مؤكدة نسبة ذلك الأحاسيس إلى الشاعر وحده:

ذاكَ مَرَعَى أَنَسَى وَمَلَعَبٌ لَهْوَى
وَجَنَى صُبُوتَى وَمَغْنَى صَحَابَى
(نفس المصدر: ١٨٦)

فَشَخْصُكَ فى عَيْنَى وَذِكْرَكَ فى فَمَى
حُبِّكَ فى قَلْبَى وَسِرِّكَ فى صَدْرَى
(نفس المصدر: ٢٦١)

ولذلك للبارودى أشعار يتحدث عن مكابدة الحب والأشواق، ويصور كما يفعل العذريون والرومانسيون على أنه قدر مكتوب لا سبيل للفرار منه. يبدو الربط بين الحب والقدر إشارة صريحة إلى محنة الشاعر وما ينتابه من شاعر الندم:

لولا مكابدة الأشواقِ ما دَمَعَتِ
عَيْنٌ ولا باتَ قلبٌ فى الحَشَا يَجِبُ
فيا أخوا العَدْلِ لا تَعَجَّلِ بلائِمَةً
علىَّ فالحبُّ سلطانٌ له الغَلْبُ
(نفس المصدر: ١٨٦)

فقلوه «لو كان للمرء عقل يستضىء به» إلى قوله «لكنه غرض للدهر يرشقه» يبدو فى سياقة جزءاً من المطلع العاطفى يلتمس الشاعر العذر والرومانسى لنفسه، إذا تاح للحب أن يغلبه على أمره. و كأنه قدر مكتوب كان ما يزال فى باطن الغيث.

٢) الطبيعة

ولقد كان محمود سامى البارودى ملتفتاً للشعر إلى شعراء الطبيعة بطريقة تشبه طريقة الرومانسيين. ونلاحظ فى القصيدة التالية كيف يسكب أوجاعه ومشاعره على عناصر الطبيعة من حوله ويطلق العنان لإبراز عواطفه وخياله، ويمزج بين إحساسه وما يشاهده من الطبيعة والحياة من حوله. فالحمام ينوح معه وتنهر دموع الغمام ويتألق خياله فيتصور البرق، يلتهب وتشتعل أحشاؤه بسبب شرارة إرتفعت إليه صاعدة من بين ضلوعه وما

يمكن فيها من نار الحب، التي يزودها الوسواس الموجودة فيه بالقوه والحركة ويرهف سمعه وينصت فيسع أزيز هذا الميزان وهي تحرق فؤاده:

أُتْرَى الحَمَامَ يَنْوُحُ مِنْ طَرْبٍ مَعِيَ وَنَدَى الغَمَامَةَ يَسْتَهْلُ لِمَدْمَعِي؟
مَا لِلنَّسِيمِ بَلِيلَةَ أَذْيَالُوه؟ أَتُرَاهُ مَرَّ عَلَيَّ جِدَاوِلِ أَدْمُعِي؟
بَلْ مَا لِهَذَا البرقِ مُلْتَهَبَ الحَشَا؟ أَسَمَتَ إِلَيْهِ شَرَارَةٌ مِنْ أَضْلُعِي؟

(نفس المصدر: ٥٢٥)

إنَّ البارودي يحكى مشاعره وآلامه التي إنعكست في بصره على الطبيعة من حوله وكأنما تمثل فيها نفس الآلام ونفس المشاعر.

يرى شوقي ضيف أنَّ البارودي «يعد بحق طليعة شعرائنا الوجدانيين الذين نفضوا أحاسيسهم على ما حولهم من عناصر الطبيعة» (ضيف، ٢٠٠٦م: ١٥٨).

وما من قوله أيضا يصف طائراً على غصن نبهه بصوته الهامس في وقت السحر:

وَنبَاهُ أَطْلَقْتَ عَيْنِيَّ مِنْ سَنَةٍ كَانَتْ حِبَالَةَ طَيْفٍ زَارَنِي سَحْرًا
فَقُمْتُ أَسْأَلُ عَيْنِي رَجَعُ مَا سَمِعْتُ أَذْنِي فَقَالَتْ لَعَلِّي أَبْلُغُ الخَبْرًا

(ديوان الشاعر: ٢٥٤)

قد وصف حركة الطائر الحسية والنفيسة وصفاً دقيقاً أعدته هذه البراعة في الصوف ليأتي في أشعاره بصورة كثيرة دقيقة (ضيف، ٢٠٠٦م: ١٥٩). من قوله أيضاً:

فَيَا «رَوْضَةَ المِقْيَاسِ» حَيَّاكِ عَارِ مِنْ المُرْنِ خَفَّاقُ الجَنَاحِينَ دَالِحُ
ضُحُوكُ تَنَايَا البرقِ تَجْرِي عُيُونُهُ بِوَدْقِ بِهِ تَحْيَا الرُّبَا والصَّحَاصِحُ

(ديوان الشاعر: ١٠٥)

وهو دعاء لها بالغيث والحضب، يعبر به عن لواعج حنينه إلى وطنه وملاعب شباب. ولا ربي بها ولا صحاح أو فلوات. وقد اختار من بين الرياح الصبا ولا صباً هنا، لأن الصبا وهي ريح الشرقية لا تسقط في مصر المطر، ولكن جاء بها لأنها الريح التي طالما حملها المحبون من العرب تحياتهم و أشواقهم إلى محبوباتهم وقد أقامها تنسج لروضة المقياس حلة بديعة من الأزهار.

٣) الحنين

إنّ قراءة شعر البارودى فى الحنين وهو من أهم موضوعاته الرومانسية تجعلنا نقسم هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام.

الف) الحنين إلى الوطن والأرض

ولد البارودى وعاش ومات فى مصر. وكان مصر موطناً لأبائه وأجداده وملتقى أصدقائه وذكرياته وأهله، لذلك أحبها كثيراً. فلما كان بعيداً عنها كان يحنّ إليها ولكن حنينه يختلف من قصيدة إلى أخرى. فتارة يكون هادئاً وتارة أخرى يكون عاصفاً. فلما كان فى حرب جزيرة كريت (سنة ١٨٦٥م) تشوق إلى مصر. فقال:

بَلَدٌ خَلَعْتُ بِهَا عِذَارَ شَبِيبَتِي وَطَرَحْتُ فِي يَمْنَى الْغَرَامِ عِنَانِي

(نفس المصدر: ٦٤٤)

فالشاعر يحن إلى وطنه مصر حنيناً عادياً فهو واثق من عودته القريبة إلى وطنه، وهو يمزج بالإفتخار بنفسه. ويشير إلى ما كان له فيها من متع ولذات. ثم إنه فارق وطنه طلب مقدر عليه.

ب) الحنين إلى الإنسان

إنّ البارودى حاول طليعة حياته على سبيل الرومانسيين أن يجد صديقاً صادقاً وقيماً. إنه كره الذين يستغلون صداقاتهم لمصالحهم الشخصية ويتقربون منه حين كان فى المناصب الرفيعة يتركونه عند المصائب وملامات الدهر. مع ذلك فقد ظل البارودى حريصاً على صديقاته. فلما كان فى حرب الروس مع الدولة العثمانية (سنة ١٨٧٧م) أرسل قصيدته الدالية إلى أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى وقال فيها معاتباً على قلة مراسلاته له:

وَمِنْ شِيَمِي حُبُّ الْوَفَاءِ سَجِيَّةٌ وَمَا خَيْرُ قَلْبٍ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدٌ؟
وَلَكِنْ إِخْوَاناً بِمَصْرٍ وَرِفْقَةً نَسُونَا فَلَا عَهْدٌ لَدَيْهِمْ وَلَا وَعْدٌ

(نفس المصدر: ١٦٧)

ج) الحنين إلى الطفولة والشباب

الإنسان بطبعه دائم الحنين إلى أيام الطفولة والشباب. وهي أيام السعادة واللهو والقوة والفتوة والنشاط والصحة؛ والشعراء أكثر الناس حنيناً إلى ذلك. والبارودي يحن إلى تلك الأيام، وهو يعاتب دهره مرة ما آل إليه. أو يطلب منه أن يعيد إليه أيام شبابه:

أعد يا دهر أيام الشباب وأين من الصبا درك الطلاب؟
زمان كلما لاحت بفكري مخايله بكيه لفرط ما بي
مضى عنى وغادر ولوعاً تولد منه حزنى واكتئابى

(نفس المصدر: ٦٥)

٤) الشكوى من المجتمع

الشكوى من المجتمع هي جزء من الحركة الرومانسية. فالرومانسى فر بروحه وخياله من بيئة إلى بيئات يحلم بها، أو إلى ماض يطلب فيه العزاء وقد قدس الرومانسى الفردية ووضعها في طرف نقيض للمجتمع وقوانينه، فإذا تناقضت المصالح راح يصب جام غضبه على القوانين والتقاليد والناس (غنيمة هلال، ١٩٧٣م: ١٠٨).

البارودي أيضاً صار في هذا الطريق وأظهر تألمه من الخداع والتلون والتحيل، وصار يشكو دائماً من عدم وجود صديق وفي:

صحبت بنى الدنيا طويلاً فلم أجد خليلاً فهل من صاحب أستجده
فأكثر من لاقيت لم يصف قلبه وأصدق من واليت لم يغن وده

(ديوان الشاعر: ١٢٥)

إنّ البارودي هنا كالرومانسيين يريد المستوى الأعلى في الصداقة والصديق، ويطلب من أيامه «بما ليست عندما» يعتقد إنّ أصعب شيء يجده الفتى في زمانه هو الصديق الوفي. يلقي البارودي عتابه ولومه على المجتمع والدهر، ويعتقد أنّ الدنيا خلت من «أخو الثقة»:

فأنفض يدك من دنيا فلست ترى خلاً وفيأ وعهداً غير منصرم
هيئات لم يبق في الدنيا أخو ثقة يرعى المودة أو يلقي يد السلم

(نفس المصدر: ٦١٩)

يستمر البارودى فى الشكوى من الدهر الذى أخره، وهو العالم والشاعر و الفارس والشجاع و قدم الذين «من دونه عليه»:

أنا الذى عَرَفَ الأَيَّامَ وانكشَفَت
لَهُ سَرَائِرُهَا مِن كُلِّ مُخْتَزَنٍ
طُفْتُ البِلَادَ وَجَرَّبْتُ العِبَادَ فَلَمْ
أرْكَنَ لِخِلٍّ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى سَكَنٍ

(نفس المصدر: ٦٥٩)

إنَّ البارودى هنا يشكو من الدهر الذى قدم ورفع الذين هم أقل مستوى منه و أخره، ويعتبر هذه الصفة من صفات الدنيا دائمة. والسرور والفرح الذى يأتى به الزمان والدهر أقل من الحزن الذى يحمله على البشر.

٥) الدعوة إلى العزلة

يدعو البارودى فى بعض أشعاره إلى العزلة عن المجتمع والناس، وهى دعوة رومانسية خالصة، ويرى أن هذه العزلة ربّما تكون أفضل من الإختلاط بالناس الذين يسيطر عليهم الكذب واللؤم:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ سَلِيمًا
قَدْ لَعَمْرِي بَلَوْتُ ذَهْرِي فَمَا أَحَدٌ
وَهُوَ دَاءٌ تَدْوَى بِهِ الأَفْهَامُ
مَدَتْ مِنْهُ مَا تَحْمَدُ الأَقْوَامُ

(نفس المصدر: ٦٢٣)

هذه الأبيات فى الحقيقة نتيجة لتجربة الشاعر ومشاعره للناس، فهى ليست كلاماً سمعه أو قرأه فى كتاب أو ديوان إنما شىء لمسّه بنفسه وأحسّه وتألّم منه.

٦) الغربة و الإغتراب

من المعروف إنَّ الغربة هى محور أساسى فى كثير من القصائد الرومانسية. هذه الغربة ربّما تكون روحية أو تكون مكانية، وهى نهاية تؤدى إلى الغربة النفسية أو الروحية. بدأت غربة الشاعر منذ شبابه؛ وهو فى سن الخامسة والعشرين حين إشتراك فى حرب كريت رغم شبابه وطموحه وحبّه للمغامرة. يمتزج وصفه للحرب بالتعبير عن غربته وحنينه إلى حبه ووطنه. وقد تنحصر بعض مقطوعاته فقط للشوق والحب والغربة دون ذكر الحرب.

سَرَى البرقُ مِصرِيًّا فَأَرَقَّنِي وَحَدَى
وَأذْكَرْنِي مَا لَسْتُ أَنْسَاهُ مِنْ عَهْدِ

فيا برقُ حَدَّثْنِي وَأَنْتَ مُصَدِّقٌ
عن الأَلِ والأَصْحَابِ ما فعلوا بعدى
(نفس المصدر: ١٣٤)

وفى مكان آخر ضمن حديثه عن حرب البلقان يسكب مشاعر الغربة والحنين إلى الماضي.

نستطيع أن نرى الإرتباط بين الغربة الروحية والغربة المكانية فى هذه الأبيات، وفى البيت الخامس تشويقاً إلى الماضي. وهى سمة أخرى من سمات الرومانسية فى أشعار الرومانسيين. يربط الشاعر غربته فى بعض الأحيان بالحديث عن الحب ويعطى صورة عن وجدانه وذاته وتجربته:

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ أَنِّي مُوَلِّعٌ بِمَنْ لَيْسَ يَعْنِيهِ بُكائِي وَلَا سُهْدِي
أَبَيْتُ عَلِيلاً فِي «سَرْنَدِيْب» سَاهِراً أَعَالِجُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ لَوْعَتِي وَوَحْدِي

(نفس المصدر: ١٦٣)

للبارودى أيضاً حديث فى المحنة والغربة والعذاب الناتج عنهما. يقول عمر الدسوقي: «وقد أثر النفي فى حسّه المرهف فزاده بؤساً على بؤس» (الدسوقي، ٢٠٠٣ م: ٢٢٣). إن هذا البؤس الذى يتحدث عنه نراه فى قصيدة يندب البارودى فيها شبابه ويظهر محنته ويصف حاله:

كَيْفَ لَا أُنْدُبُ الشَّبَابَ وَقَدْ أَصَ بَحْتُ كَهْلًا فِي مِحْنَةٍ وَاغْتَرَابِ
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جَدَّتِي وَكَسَائِي خَلَعْتُ مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبَابِ

(ديوان الشاعر: ٦٨)

إنّ هذا الكلمات تصوّر لنا حالة البارودى النفسية لأنها فى الحقيقة تصوّر ذات الشاعر، فهو لا يتحدث عن فخراً ومدحاً أو حرباً أو حكمة؛ إنّما يبرز حالته النفسية وآلامه ويشكو من القدر المحتوم الذى أخذ منه شبابه وحكم عليه بالسجن والنفي والبعد عن الأهل والعائلة، ولم يتركه إلى هذا الحد بل كساه؛ كما يقول خلعة رثة الجلباب ولوى شعر حاجبة على عينيه ولم يبق منه إلا «أشلاء همة فى الثياب».

للبارودى قصيدة من الشعر الرومانسى الوجدانى الذاتى فى ثلاثين بيتاً نظمها وهو بسرنديب؛ نجد فيها أكثر ملامح الرومانسية. تتجلى نفسية البارودى وذاته فى هذه القصيدة التى يمكن تقسيمها على النحو التالى:

١-٤	هجران الحبيب وتأثيره على نفس العاشق
٥-٨	غربة الشاعر فى سرنديب
٩-١٤	الحنين إلى مصر
١٥-١٩	الحنين إلى الأهل
٢٠-٢٣	الحنين إلى زمن الشباب
٢٤-٣٠	الإستسلام للقضاء والقدر

تبدأ القصيدة بالكلام عن الحب وطلب دواء وشفاء له وتصوير ما فعل الهوى والحب
بشاعر:

هَلْ مِنْ طَبِيبٍ لِدَاءِ الْحُبِّ أَوْ رَاقِيٍّ؟ يَشْفِي غَلِيلاً أَخَا حُزْنٍ وَإِيرَاقِيٍّ
قَدْ كَانَ أَبْقَى الْهَوَى مِنْ مُهَجَّتِي رَمَقاً حَتَّى جَرَى الْبَيْنُ فَاسْتَوَلَى عَلَى الْبَاقِيٍّ
(ديوان الشاعر: ٣٧٠)

نتيجة البحث

كشفت لنا الدراسة إنَّ محمود سامى البارودى بحكم حياته وما تلى من ذلك المصائب
الجسام لجاء إلى الشعر الوجدانى، الذى يعتمد على العاطفة القوية؛ وهذه الميزة من أهم
الميزات التى دعت إليها المدرسة الرومانسية وهذه النزعة الرومانسية عند البارودى
تتجلى بوضوح فى قصائده التى عالج فيها موضوع الطبيعة، والحب، والحنين، والشكوى من
المجتمع والغربة والدعوة إلى العزلة.

إنَّ البارودى فى إقباله على الطبيعة ينحو منحى الرومانسيين. إنَّه حين يكره مظاهر
المجتمع السلبية من مثل الكذب والنفاق يفرّ إلى الطبيعة حيث يجد الهدوء والبساطة
والجمال، وتروقه الوحدة بينها. يلجأ فى هدأة الليل إلى أحضانها ويحكى مشاعره وآلامه
التى انعكست فى بصره على الطبيعة من حوله، وكأنما تمثل فيها نفس الآلام ونفس
المشاعر.

البارودى حين يحسّ فى المنفى بالغربة، يحنّ إلى وطنه ويذكره بشعبه والطبيعة
ويصف مناظره، ولا ينسى وطنه فى أية حال من الأحوال. إذا نمعن النظر فى أشعاره
الإغترابية نرى أنَّ الشاعر يقل صبره فى أخريات نفيه وتتغير أحواله، وانعكست فى قصائده

الحسرة والتوجّع و الشوق إلى وطنه. فلهذا كانت أشعاره الوطنية التي تتضمن الحنين من أجود ما نظم في حياته الشعرية وصار هذا فناً بارزاً على يد البارودي.

الحنين إلى الأهل والأصدقاء: يظهر البارودي حين طرأ الشكوى والحنين حزنه واضحاً في تجلّي الأمل والخيبة كعنصرين متخلفين، وهذا من خصائص شعره العاطفي؛ فنستطيع أن نقول إنّ القصائد الرثائية في أهله وأصدقائه قصائد وجدانية تقترب من الرومانسية، لأنّ الشاعر قد التزم فيها بعواطف صادقة تسوق قريحة الشاعر إلى معان خاضعة للعاطفة وتكاد الشكوى والعاطفه والحنين تكون المحور الرئيسي لهذه القصائد.

المصادر والمرجع

البارودى، محمود سامى. ١٩٩٢م، **الديوان**، شرح على الجارم ومحمد شفيق معروف، القاهرة: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى بالتعاون مع الهيئة المصرية للكتاب.
الدسوقى، عمر. ٢٠٠٣م، **فى الأدب الحديث**، الطبعة الثانية، القاهرة: دار الفكر العربى.
ضيف، شوقى. ٢٠٠٦م، **البارودى رائد الشعر الحديث**، القاهرة: دار المعارف.
عشماوى، أحمد ذكى. لا تا، **الأدب وقيم الحياة المعاصرة**، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة.
غنيمى هلال، محمد. ١٩٧٣م، **الرومانتيكية**، القاهرة: دار النهضة المصر للطبع والنشر.
الفاخورى، حنا. ١٩٩١م، **الموجز فى الأدب العربى وتاريخه**، المجلد الأول، بيروت: دار الجيل.
القط، عبدالقادر. ١٩٩٢م، **البارودى بشير الإتجاه الوجدانى فى الشعر العربى الحديث**، القاهرة: مؤسسة جائزة عبدالعزيز البابطين للإبداع الشعرى.
موسى، خليل. ١٩٩٩م، **البارودى رائد النهضة الشعرية الحديثة**، الطبعة الأولى، بيروت: دار ابن كثير.
الورقى، سعيد. ١٩٨٤م، **لغة الشعر العربى الحديث**، بيروت: دار النهضة العربية.
هدارة، محمد مصطفى. ١٩٩٤م، **بحوث فى الأدب العربى الحديث**، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

المقالات

سادات اشكور، سيد سليمان. صيف ١٣٩٢ش، «**الكلاسيكية والتجديد، صراعات ومعطيات**»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت، السنة ٥، العدد ١٨، صص ١٢-٤.
شمس آبادى، حسين ومهدى ممتحن. صيف ١٣٩١ش، «**مفاهيم الإغتراب والتغريب فى الأدب العربى؛ دراسة مقارنة فى الأساليب والتأثير**»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت، السنة ٤، العدد ١٤، ص ١.
ملازاده، ريحانة. صيف ١٣٨٩ش، «**الرومانسية فى شعر سيد قطب**»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت، السنة ٢، العدد ٧، ص ١.